أخلاق عرب

AMERICAN GEOGRAPHICAL SOCIETY
ORIENTAL EXPLORATIONS AND STUDIES No. 6.
Edited by J. K. WRIGHT

THE
MANNERS AND CUSTOMS
OF THE
RWALA BEDOUINS

BY

ALOIS MUSIL
Professor of Oriental Studies
Charles University, Prague

Published under the Patronage of the
CZECH ACADEMY OF SCIENCES AND ARTS
and of
CHARLES R. CRANE

NEW YORK
1928

الرُّوَلَه وعاداتُهم

للمستشرق التشيكوسلوفاكي ألويس موزل (١٨٦٨ ـ ١٩٤٤م)
ترجمة الدكتور محمد بن سليمان السُّديس

الأَجْرامُ السّماويّة والطّقْس(*)

يتصور الرولة أن القمر ينظِّمُ حياتَهم، فهو يكثف أبخرة الماء، ويجذب السحب الممطرة، ويستقطر المطل النافع على المرعى، ويتيح للنباتات ـ ولا سيا المعمرة منها التي هي جليلة الأهمية للإبل ـ النمو والحياة المديدة.

وهو يجود على البدوى المتنقل بأمان نسبيٍّ وهجوع منعش. ويتصور البدو، من ناحية أخرى، أن الشمس تتحرق لتدمرهم، فهي تسرع في إيباس كل رطب، لا من مكونات الأرض وحسب، بل من النبات والحيوان والإنسان.

إنها لتقضي على الحياة بمظاهرها كافةً، وتمكن الأعداء من الغزو، بأن تتيح لهم الرؤية الجليّة. وهي تنتقم من الناس والأنعام الهالكة بإحالة الأجساد الميتة سمًّا زعافاً.

والشمس أنثى قوية نحيلة، ممتلئة غيظاً. ولأنها عقيم فهي توجس في قلبها غيرة من الحياة بمختلف ألوانها، وتقضي عليها في مهدها.

وكانت الشمس (الأنثى) مُذ عرفها البدو وما فتئت مُسِنَّةً بقدر ما كانت غيوراً وشحيحة. أكانت في أي وقت مضى أصغر سنًّا مما هي عليه الآن؟ وهل أنجبت ذريةً؟ هذا ما لا سبيل لمعرفته. ولكن الرولة يرون أنْ لو عادت الشمسُ فَتِيَّةً وحملت الأطفال لأضحت في الحال أرقّ وأكثر حناناً.

أما القمر ففتًى مبتهج، مفعم بالنشاط والحيوية، والشمس زوجُه، لكنه لا يشاطرها عش الزوجية فهو يبقى معها في آخر أيامه وهو قمر، وأول أيامه وهو هلال، من أجل المعاشرة الزوجية، لكنه غير قادر على إشباع عواطفها. ويضحى القمر نحيلاً جدًّا لخوفه منها ومن إضاعة قوَّته بلا طائل.

لقد امتنع في بادئ الأمر عن تلبية رغبات زوجه العجوز التي ـ برغم ذلك ـ لا يمكن إشباعها، لكنَّ هذا أثار حفيظتها فحدث بينهما صراع اقتلع فيه كل منهما عين نِدِّه. ومُذْ ذاك فإن في ذلك الموضع من كل منهما بقعةً قاتمةً أو نَدْباً، ويحنُّ كل منهما إلى عينه المفقودة: يَحِنُّ إليها القمرُ لِيُحْسِنَ إلى الرولة، وتحنُّ الشمس إليها لتلحق بهم مزيداً من الضرر. يقول القمر أحياناً: «واللهْ لولاكْ فَضَخْتِ عيني لا أَخَلِّي الصقَّار يهدْ بْقَمْرايَهْ»، أي: واللهِ لولا أنَّكِ اقتلعتِ عَيْنِي لتركت الصيادَ يطلقْ صقرَهْ على الصيد في القمراء. فتجيبه: «والله لولاكْ فَضَخْتْ عيني لا أَخَلِّي حِقَّةَ البِلْ تِشْوَى بْرَمْضَايَهْ» أي: والله لولا أنكَ اقتلعتَ عيني لجعلت الحِقَّة من الإبل (أي الناقة التي بلغت السنتين) تُشتوى في الرمضاء.

وللقمر والشمس عدو واحد، إنها غولة شبيهة بالسمكة تدعى «الحوتة»(١). لقد اضطهدتهما منذ أمد موغل في القدم، لكنها نادراً ما أفلحت في خداعهم. وما برحت متى ما فعلت ذلك تفتح فكيها، وتحاول ابتلاعهما، فيروغان أحياناً، فلا تحظى إلا بفلذةٍ صغيرة منهما. لكنها في أحايين أخرى تزدردهما عظماً ولحماً، لكن الشمس من الحرارة والهزال بحيث لا تستطيع حتى الحوتة هضمها فتقيئُها بسرعة دون أن يمسها مكروه. لذا فالرولة غاضبون لأنه حتى الحوتة لا تستطيع تخليصهم من الشمس القاتلة. أما القمر فإنهم جدُّ بِهِ حفيُّون، وإذا ما لاحظوا أن الحوتة قد عضته، إبان فُتُوَّته، فإن معظم المخيمات تضطرب، وينبعث الرجالُ والنسوة خارجين من البيوت مسرعين لنجدته.

النساء يضربن قدورهن النحاسية، والرجال يلوِّحون برماحهم، ويشهرون سيوفهم في الهواء، ويطلقون العيارات النارية، ويصيحون بصوت واحد: «يا حوتَهْ أطلقي القَمَـاااااار» فإذا لم يُجْدِ ذلك نفعاً، قفز الرجال على صهوات جيادهم، والنساء على الجِمال، وانطلقوا جميعاً نحو المكان الذي تهدد فيه الغولة القمر. وهم حتى الآن ينجحون دوماً في إنقاذه، لكنهم ما فتئوا يخشون انتصار الحوتة. ولهذا السبب فإن لكل حيٍّ رقيباً ليليًّا لا ينحصر واجبه في حراسة الممتلكات وحسب، بل وحراسة القمر وَليّ نعمة الرولة أيضاً.

ويحس البدو بتوتر شديد أيضاً فِي الليلة الأولى التي يهل فيها الهلال (لَيلَة السَّرّا) لأن القمر لا يُرى في تلك الليلة في شرق أو غرب. ويتطلعون في اليوم التالي تجاه غربي السماء بلهفة أملاً في اكتشاف ولو جزء صغير، في الأقل، من دائرة وليٍّ نعمتهم القمر الهزيل (لاقِمٍ من قَرصَتِه). فإذا رأوا الهلال أراه بعضهم بعضاً، ورفعوا أيديهم إليه صائحين: «يا هلال، يا سيِّد، يا سعيد، يا عزّ الهلال، يا اللي فكَّيْتنا بْهَلِّي زَلّْ تَفِكْنا بْهَلِّي هَلّْ»، ومعنى الجملة الأخيرة: يا من سلمتنا في هذا (الشهر) الذي زَلَّ أي (مضى)، ندعوك أن تسلِّمنا في هذا (الشهر) الذي هَلَّ.

ولا يعرف الرولة معرفة مؤكدة أبداً كم ليلة مضت على الهلال، وإذا تباحثوا في ذلك تشاجروا، ثم اضطروا إلى التسليم بما يقوله أكبرهم سنًّا وأكثرهم تجربة. لكن الثقة في كبار السِّن تضعف جيلاً بعد جيل. فالشباب أذكياء، ولا يعيرون نصائح آبائهم وآراءهم آذاناً صاغية، ومن هنا جاءت شكاية أب مُسِنٍّ لابنه بقوله: «يا وِلْدِي يطْلَعْ جيلٍ واني، يقول لِلْهْلال ابنْ ثاني»، أي: سيأتي جيل عاصٍ يقول: إن الهلال، وهو في ليلته الأولى، في ليلته الثانية!!

ويضيف جار له: «يِطْلَعْ جيلْ مِدْفَع، لْيا عزَّمْتِه ما يَرْوَى وما يِشْبَع، ولْيا نَخَيْته ما يِفْزِع» أي: سيأتي جيل عنيد، إن دعوته إلى مأدبة فإنه لا يرتوي من شراب، ولا يشبع من طعام، وإن استنجدت به لم يُنْجدك!

ويكون البدويُّ أسْعَدَ ما يكون في الفترة من الليلة الثامنة حتى الثامنة عشرة، لأن القمر، في هذه الليالي، يظل حيًّا حتى تطلع الشمس (تَطْلَع الشمْسْ والقَمَرْ حَيْ).

وتُدعى هذه الليالي «البيض» (لَيَالَ البيض)، فلا يمكن فيها رؤية البدوى من بعيد، ولا مهاجمته بغتةً من قريب؛ لأنه يرى أبعد من مرمى البندقية. وابتداء من الليلة الثامنة يستطيع النوم قرير العين، ومن الليلة العاشرة فما بعد لا يكون مضطراً لجمع إبله الباركة منتشرة حول بيته هنا وهناك **(ليلة ثِمَانْ نِم بامان، وليلة عَشَرْ لا تَرُدَّ النَّشَ)**، فبالإمكان، في هذه الليالي، ترك نار المسافرِ الوحيد متقدةً، وفي الغازات الحربية لا حاجة لقنديل لينير الطريق، فلا غرو، والحال هذه، أن يتمنى الشاب الفَتِيّ قائلاً: «أَبْغِي إِنَّ الليل أقمر. والرَّوضْ أخضر، وأنا حيّ لا أزغر ولا أكبر» أي: أريد أن يظل الليل مُقمراً كل ليلة، وأن يظل الروض دائم الاخضرار، وأظل أنا حيًّا ودون أن أكْبَرَ أو أصْغَرَ.

ولكن يبدأ الشر في المجيء بعد الليلة الثامنة عشْرة، فاللصوص يجوسون خلال الحي، ويخترق الأعداء المكان، وتُرى النار الضعيفة من بُعدٍ شاسع. ويُحْدِق الخطر بالقاصي والداني، لهذا فإن التحذير يُسمع المرة تِلْو المرة: «ليلةْ عَشْرِيْن احفظ مالك يا مسكين».

إن ظلامَ الليلِ البهيمِ لَيُفْعِمُ أفئدةَ الأرقينَ بالرهبةِ فيجأرون بالهتاف: **«الله يكفينا شَرّ الظَّلْما والظالمين»**(٢).

وفي الشتاء يعبر القمر كبدَ السماء، بينما يظل في طرفها صيفاً «مع بَطين السَّما»، وتُلقى الشمس وهجها فوق الرءوس تماماً.

ويقسِّم البدو الزمن إلى فترتين: إحداهما عندما يحكم القمر، والأخرى عندما تحكم الشمس، الأولى تدعى «الليل» وتدعى الثانية «النهار»، ويؤلفان معاً يومنا ذا الساعات الأربع والعشرين (يَوم)؛ والبدو، على أية حال، لا يستعملون هذا الاسم، فهم يذكرون الليل أو الليالي فقط، أما النهار، حكم الشمس، فيُعدّ تابعاً للَّيل الذي يبدأ بغروب الشمس، وينتهي بطلوعها، ويسمى وقت غروب الشمس «المُغرب» وأول الليل «العَشَا»، وما بين غروب الشمس وانتشار الظلام «العَتيم»، ثم يجيء «العَتيم الأخير»، وأخيراً منتصف الليل «نُصّ الليل»، وما بين منتصف الليل وشروق الشمس هو «تالي اللَّيلْ»، ثم تأتي «شقَّة العمود»، أو حين تبدأ نجمة الصباح في الارتفاع فوق الأفق المظلم وأخيراً الفجر «طلعة الحَمار» ـ بفتح الحاء ـ، ويدعى وقت شروق الشمس «الصُّبْح»، والوقت الذي ترتفع فيه الشمس وتجفف الندى، أو تكون في منتصف الطريق بين الشروق والظهر هو «الضَّحى»؛ ثم الظهر، وتليه «القابلة» أو «صكة

«العُمَيّ»: وقت القيلولة(٣). وما كان نحو منتصف الوقت بين الظهر والغروب فهو العصر، ثم يأتي «الْعصير».

وليس تقسيم اليوم إلى ساعات معروفاً، ويستعمل الرولة كلمة «ساعة» لكن بمعنى: «على التَّو»، أو: «حالاً»، أو: «بعد دقيقة».. مقلاً: «أشْعل النار بْساعة». أي: مباشرة. وأيام الأسبوع لا تعد. فإن «سّبوعْ» لا تعنى سبعة أيام وحسب، بل خمسة أو، حتى، تسعة أيام، أو أكثر.

ولا يعلم الرّولة هل الشهر ثمانية وعشرون يوماً أم ثلاثون، ولا يبالون بذلك، لأنهم يعدون الليالي وحسب، وليس لديهم أسماء معينة للأشهر كلٌ على حدة؛ لكنّ «حمْار» العبد الأول للأمير النوري أصر على أن الأشهر المتتالية تسمى على هذا النحو:

عاشور ـ صُفَرَ ـ الأربعة الأشهر التّوامْ(٤) ـ الغَرّا ـ الْقَصَيِّرْ ـ رَمضان ـ شهرا الأفْطار ـ وأخيراً: الضحيَّه.

لكن لا أحد من عامة البدو، بل ولا من شيوخ العشائر الشبان، يعرف هذه الأسماء كلها. وكل يعرف «رمضان» و«الضحية» وكل يستطيع ذكر بعض باقي الأسماء، لكن دون معرفة النسق.

ويبدأ العام بالخريف حين ينكسر كل عود (يطِقّ العود)، وتلك أمارة على كونه تام النشوفة واليبس. ثم يظل البدوى يترقب متطلعاً إلى الغيوم منتظراً المطر والعام الجديد اللاحق.

● الغيـوم والمطـر ●

الهلال هو الذي يجلب المطر، فحالما ينتهي موسم المطر يمتص الهلال الماء من البحر العظيم في قطرات متناهية الصغر بحيث تستطيع القطاة جرع مائةٍ منها دفعةً واحدة. ويَصُفُّ الهلال هذه القطرات صفوفاً متماثلة، ويصوغ منها أبخرةً وسحباً خفيفة (غيم) في موضع ما بعيدٍ في الغرب ـ في (الخضرا)، أو تونس، كما يظن بعض الناس.

ثم لا يكاد سهيل يبدو في الأفق في الخريف («الهريف» مستخدمة بمعنى

«الخريف»)، حين لا يكون لدى البدو ماء لهم، ولا مرعى لقطعان ماشيتهم، حتى يرسل الله المَلَك إلى الغرب الأقصى (أقصى الغرب) فيأمر المَلَكُ القطراتِ أن يلتئم بعضها مع بعض، وهكذا تؤلِّف السحبُ الداكنةُ (سِحِب)، فيجرها إلى الشَّمال حيث يصفِّدها بالسلاسل. ثم يضيف إلى هذه السحب سحباً صغيرة (غيم) أكثر فتضحى السحب كثيفة (يِحَجْحِج)، وأخيراً يستاقها (يِشِلّها) أمامه وهو قابض على العصا (المحجان) الذي يسوق به مطيته، فوق أراضي الرولة وغيرهم من البدو، ويأمرها أن تُسقط أمطارها على الصحراء التي سَفَعَتْها الشمس بأشعتها، وإن قاومت أية سحابة هذا الأمر ضربها الملك (بمحجانه) مُحْدثاً البرق والرعد .. فتتخلى السحابة الوجلة عندئذٍ عن كل ما تحمله من مياهٍ، ثم تتبدد وتتلاشى. لكن ما كلُّ بارقةٍ تجود بمائها. وأحب الغيوم إلى البدو ما يسمى «سِحِب» و«مِزِن». و«السحابة» أو «السَّحاب» هي سحابة رمادية كثيفة بصفر لونها، في الغالب، فلا تتبدد حتى تمطر (لْيا رَقَّطتْ نَقَّطتْ). و«المُزْنَة»: سحابة صغيرة بيضاء أصلاً، تنضم إليها سحب كثيرة أخرى شبيهة بها (**يِتَفازِعن**)، فترتفع السحابة الكبيرة الناتجة عن ذلك، وتسودّ بعض أجزائها، وتلمع البروق في حواشيها، وتزمجر بالرعود، ثم تثمر مطراً غزيراً (**صَنَعَتْ**). يقول البدو عادة: «اِنْتِ مِزْنةْ الغَرَّا اللي غشّانا هَلّها، وَاهَلِّي بك هَلْوِتين هَلْوة الأرض بيلالها» أي: أنتِ أيتها المزنة الغراء التي قد أدهشنا مطرها! أُرحب بك ترحيبين كترحيب الأرض ببللها.

وإذا أمطرت السماء بغزارة ابتهج البدوي وقال: «هَلّل المَطَر هَلَّل! سَيَّلتْ الدِّنْيا»!

وإذا رئي المطر متساقطاً، عن بعد، قال الرجال: «استَهلَّتْ الدِّنْيا» أي: لقد صلى العالم من أجل مطر وفير وأفلح في صلاته⁽٥⁾.

وتسمى زخة المطر التي تستمر قليلاً فقط «رَهَاشِيَّة» أو «مَرْهاش»، والمطر الوفير الذي يسقي منطقة صغيرة من الأرض «هِمْلُول» والجمع «هماليل»، وإذا كان المطر كثيراً على منطقة واسعة سُمي «دِيم».

وقد يمطر السحاب أغزر مطر، لذلك قد يسمع المرء غالباً قولهم: «سحَابْ نهاب .. يرمي على روس الحزوم اكشاش» أي: السحاب نهابٌ يلقي على قمم التلال مزيجاً من الحصى والحصباء.

والمطر الشديد الانهمار يجرف التربة الخصبة الصالحة للنباتات المختلفة من الروابي العالية ذات المتون المتموجة، فلا يبقى هناك سوى أحجارٍ كبيرة أحجامها متنوعة لا يجد البعير بينها إلا نزراً يسيراً مبعثراً من العشب.

ويصف البدو السماء الملبدة بالغيوم تلبيداً تامًّا بأنها «مُطَوسة». والسحبُ نصفُ الشفافة الشبيهة ببيوت العناكب المعلقة تحت السحب الكثيفة العليا هي السحب الممطرة «رَوَيَّات المطر».

والسحب عن بكرة أبيها تطيع أمر الله (سبحانه وتعالى)، وهو يرسل مَلَكه إليها، فيمسك بعصاً (محجان) بيده، ويحث السحب على المسير، ويصيح بها، ويضرب العاصيات. وضربة «المحجان» هي درب البرق المتعرج «عَقْرُبَة»، والصياح والضرب هما هزيم الرعد الذي يسمع على مسيرة يومين (تُقطع خلالها مائة كيلومتر). وإذا دنا الرعد (ليا ارعَدَتْ السحابة) فإن البدوي يصيح في توقع مستبشر للمطر: «اعْمِر يا كريم! يا زَين الوَحَىْ!». أي: أنبت لنا مرعى جيداً يا كريم! ما أجملَ الصوت!

ومع كل ومضة من ومضات البرق يهتف البدو: «عَزَّك يا عزيز الوجه!» أي: ما أعزَّك يا عزيز الوجه!.

وإذا أصاب (لَعَج) البرق شيئاً ما حول الحي فإن البدو يخشون أن تهبط قطع من السحاب وتدفنهم، ولذلك يصيحون: «إرفَع العَرْش عن الفَرْش يا مانع قُوى» أي: ارفع السماء عن الأرض يا مانع يا قوي!

وتنفصل أحياناً قطعةٌ من السماء مؤلفةٌ من نار وحديد، وتسقط على بدوي فتقتله «فلان طاحت عليه الصاقعة».

وإذا أمطرت سحب مرتفعة جداً فإن الماء يُغرق بعض النجوم الصغيرة التي يعوم آلاف منها في الجو في الليالي الباردة. يتّقِد كل نجم منها اتقاد الجمرة، وإذا أصابها المطر انطفأت، وأخذت تُهسهس ثم تفتَّتت، وسقطت على الأرض، وهي تصرخ أثناء سقوطها طالبة النجدة. ويشق مثل هذا النجم الساقط في الصحراء أخدوداً (**مطيح النجم**) يتراوح طوله بين أربعين خطوةً وستين، ويختبئ في أقصاه.

وأي شخص يلاحظ سقوط نجم فإنه ينطلق في الحال مسرعاً بقِربَةٍ ملأى بالماء إلى مُختَبَئه، ويصب عليه الماء، ويُهيل عليه الرمل والحصباء، وينتظر عاماً كاملاً، وعند انقضاء تلك المدة يزيح الرمل والحصباء، ويخرج النجمَ، ويذهب به إلى صانع سيوف حاذق فيذيبه ويطرقه، ويصنع منه سيفاً ذا حدٍّ واحد تصل قيمته مائة ليرة تركية (٤٥٠ دولاراً).

وحين يبدأ السحاب في التلاشي مع وجود البرق والرعد فإن الرولة يدعون قائلين: «**يا مَنْ يِرْسِل لَلسَّحابْ، يِرْسِلْ له ثمانِ ارْكاب، وْيَقُولْ لِهْ عَطْوابِجي**» أي: يا من يرسل (الملائكة) إلى السحاب! أرسل له (ملائكة) على رِكابٍ ثمان، وقل له: عطاء (الله) سيهطل.

وإذا نشر الله الرحيم السحب لكن لم يسقط من المطر سوى قطرات قليلة، فإن البدو يندبون (حظهم) قائلين: «مِنْ عُقْبِه غَدّينا الذَّهاب، مثل ضحضاح السراب، عُقْب الله ما حِنّاشِين» أي: من بعده (أي هذا المطر) فقدنا ما كان قد يجلب لنا الذهب، (لقد فقدناه) كضحضاح السراب، إننا لسنا شيئاً بدون الله (**أي لا نستطيع عمل أي شيء دون عون الله**).

ولو نزل المطر غزيراً لوفر للإبل مرعى طيباً، والإبل التي تحظى بمرعى طيب تباع على «عْقَيل» بالذهب(٦).

ويدلّ ظهور قوسِ قُزح (سَيْف المَطَر) نهاراً على انتهاء المطر، وحالما يختفي تهدأ السحب (لُيا سَيَّفَتْ كَيَّفَت).

● الفصول ومواسم الأمطار ●

السحب في الصيف كثيرة لكنها غير ممطرة، وفي الخريف فقط يُرى قوس قزحٍ صغيرٌ (مِدّة الشمس) إما عن يمين الشمس أو عن شمالها، وهي أمارة لا تخطئ على أن المطر آتٍ عن قريب. وفي هذا الفصل يأخذ العرافُ (صاحب السرّ) عرافُ عشيرة (النُّصِير) مبارك ابن هويمل حفنة ملح، ويقسمها أقساماً ستة صغيرة مبيِّنةً الأمطار الرئيسة، ويجعلها على

هيئة صليب (صَلَب) هكذا:

سَهِيلاوى
صيفي ثُرّوى شِتْوى
جوزاوى

ثم يضطجع بقربها، وينتظر ما سيخبره به مبعوث الله خلال الليلة المُقبلة. وفي الصباح التالي يفتش هو والآخرون الأكوام؛ والكوم الذي ذاب أكثر ملحه هو الذي سيجود بالمطر الوفير(٧).

وتبدأ سنة البدو مع أول مطر غزير بعد ظهور (سُهَيل) في أوائل أكتوبر: «طلعة السَّهيل (كذا) نُشرِّق» أي: لقد أرانا سُهيلٌ نفسه فلنمضِ إلى الصحراء الداخلية!. هذه هي صيحة البدو الذين يجوسون خلال البراري الداخلية بعد أن يبرحوا حدود المناطق المأهولة والمزروعة مع ما يملكون انتجاعاً للمراعي.

ومدة سهيل أربعون ليلة، وبعدها الثُريا ومدتها خمس وعشرون ليلة (ثُرّوِي)، ثم تتبعها الجوزاء ومدتها كمدة الثريا.

وهكذا فإن ليالي سهيل والثريا والجوزاء تسعون ليلة ـ ثلاثة أشهر ـ وهذا الفصل من فصول العام يسمى (الصَّفِرِي)، وهو يوافق أكتوبر ونوفمبر وديسمبر على وجه التقريب. ثم تدخل الشِّعْرى (الشَّعرى) وتلبث أربعين ليلة. وهذا الفصل من فصول العام يسمى (الشّتا). وبعد الشعرى يدخل (السّماك) ويظل خمسين ليلة، ولكن في منتصف أبريلنا ينتهي حكم النجوم، ثم يدخل الصيف الذي يستمر حتى بداية يونية تقريباً، ثم يخلفه الفصل الجاف (القيظ) ممتداً أربعة أشهر حتى نحو أوائل أكتوبر.

وهكذا فإن البدوى يعرف للعام فصولاً خمسة: الصَّفِرى: تسعون ليلة (**من أول أكتوبر إلى أول يناير**)، والشّتا: أربعون ليلة (إلى نحوٍ من ٢٠ فبراير)، تتبعه فترة تسمى أحياناً الجزء الثاني من «الشّتا» وتنتهي في الرابع من مارس تقريباً، ثم السَّماك: خمسون ليلة (إلى منتصف أبريل)، فالصيف (**إلى أول يونيه**) ثم أشهر القيظ الأربعة.

ويجهل عامة البدو أي تقسيم للعام غير هذا التقسيم.

ويقسم البدو الأمطار إلى: الوسم، والشَّتْوى، والسّماك والصيفي. ويتضمن الأول منها أمطار «السهيلاوى» و«الثّروى» و«الجوزاوى» أي أمطار سهيل والثرياء والجوزاء. أو أمطار «الصَّفِرى»، أو الأمطار الخريفية.

وحالما يظهر سهيل يغادر البدو مخيماتهم المقامة في الأودية وفي بطون الشعاب الواسعة الجافة التي غالباً ما يتجاوز طولها المائتي كيلومترٍ.

وبعد سقوط أمطار وفيرة في أعالي هذه الأودية يندفع الماء اندفاعاً عنيفاً عبر القنوات، حاملاً معه المخيمات، ومفرقاً الناس وماشيتهم معاً، ومن هنا قيل: «لْيا طَلَعَت السّهِيل (كذا)، لا تامَن السَّيل، وتَلَمّس التّمْرْ بِالليل»، لأن التمر يكون في ذلك الحين ناضجاً، ولا حاجة للانتقاء.

ويسمى المطر «السّهيلاوى» أيضاً «الخرْفِى» أو «الهِرْفِى».

وإذا كانت الأرض قد تشربت به تماماً «أرْض مَوْسُومَةٌ عليها الخرْفِى» فإنها تتفتق عن وريقات النباتات الحوليةِ الصغيرة ذاتِ الخضرةِ الشاحبةِ .. فتظهر هذه الوريقات سريعاً في كل مكان ويدعوها الرولة أعشاباً (عِشِب)، بينا يسمون النباتات المعمرة نباتاتٍ خشبيةً (شَجَر).

وإذا كان «الوسم الثّروى» أو مطر الثّريا وفيراً أيضاً فإن النباتاتِ تبلغ أقصى نموِّ ها، وترعى الإبل عشباً جديداً حتى قبل حلول الشتاء.

والوسم «الثّروى» أهم الأمطار كلّها، فهو العامل الحاسم للرعي في المستقبل. ويضمن المطر «الجوزاوى» الوافر الممتد على مناطق واسعة نمو الأعشاب والأشجار، ويطرد شبح الجوع. ويأتي أحياناً بعد انقضاء فترة المطر «الجوزاوى» مَطَرٌ يدعى «التوبيع» في وقت ظهور «الدبران»، فيُتِمُّ الخصب الذي جلبته أمطار «الجوزا» على أنه غير كافٍ وحده ليحل محل تلك الأمطار حُلولاً تاماً.

ولا يضمن المطر (الشّتْوى) الذي يسمى «النّقضان» نموًّا جيداً للأعشاب إن لم تكن قد نبتت بعد أمطار الموسم.

وثمة في السِّماك، وبخاصة في فصل الصيف، أيام كثيرة شديدة الحرارة حتى أن الأعشاب التي تكون قد نبتت بعد المطر (الشِّتْوى) تصفرّ قبل اكتمال نموها. ولكن المطر «الشِّتْوى» يملأ الخزانات كلها بالماء الصحيِّ النقيِّ الذي يتبخر ببطء خلال أيام الشتاء ولياليه الباردة، ويظل، نتيجة لذلك، نقيّاً مدة طويلة.

ولا يكون مطر «السِّماك» نافعاً ما لم تكن التربة قد ارتوت بأمطار خريفية رِيًّا تامًّا، لا سيا أمطار الجوزاء، لأن أمطار «السِّماك» في هذه الحالة تنمّي كلأً من الأشجار والأعشاب سريعاً.

وتكاد تكون رفاهية البدو في ذلك الفصل بخاصة مضمونة. ومع ذلك فإن مطر السِّماك، وإن جاء أوفر ما يكون، يمسى ضئيل الجدوى إن هطل على أرضٍ يابسةٍ لنقص الرطوبة من أمطار الخريف السابقة، لأن شمس الفصل التالي (الصيف) الحارّة ستستهلك كل شيء قد نفخ فيه السِّماكُ الحياة.

ويؤدي المطر الصيفيّ الوفيرُ إلى هلاك النباتات الموسمية، ويقوّي النباتات المعمرة (الدائمة الخضرة)، ويملأ الآبار، بلا استثناء بالماء.

وتصبح الأعشاب التي أنعشها مطر الصيف الغزير وافرة النماء، فتَمُدّ بسرعةٍ، أوراقاً جديدة وأزهاراً، ولكن بعد أيامٍ معدودات تمتص الشمس السافعة كل ما فيها من ماء ورواء، وتذويها أبكر مما لو لم يوقظها المطر الصيفي من مرقدها. أما الشجيرات، من الناحية الأخرى، فإنها، لِتمتُّعِها بفترة اخضرار أطول، تنال رطوبة كثيرة جدًّا من مطر الصيف الغزير تمكنها من بلوغ نموها التام.

إن وفرة نماء النباتات المعمرة في الخريف أمارة لا تخطئ على أن المنطقة المعينة قد زارتها أمطار صيفية جيدة، ولذا قيل: «يا عينْ الخُشيفِ ترْعى الخِلْفى عُقْبَ الصَّيفى!». أي: يا لَعَيْن ذلك الخُشَيف (الغزال الصغير) سترعى مرعى الخريف بعد مرعى الصيف.

ويملأ مطر الصيف الوفير أيضاً البِرَك الطبيعية والمُعَدَّة معاً، لكن لا تلبثُ الضفادع «الدغاليص» ومختلف ضروب الديدان أن تغزو مثل هذا الماء، وسرعان ما تحيله كريه

الرائحة وغير صالح للشرب.

● الاستغاثات من أجل المطر ●

إن لم تَحْظَ الأرض بمطر خريفٍ وفيرٍ فإن خطر الجدب (المَحَلْ، أو المُخْطي) يلوح في الأفق، ولدَرْئه تؤلف بنات البدو وزوجاتهم موكباً مع «أم الغيث»، فيُمَدُّ ثوب امرأة على عَصَوين ليتألف صليب، وتحمله فتاة عذراء على رأس الموكب تطوف من بيت لآخر مغنيةً:

يا امَّ الغيث غيثينا   بلّي بْشَيتْ راعينا
يا امَّ الغيث غِيثينا   مْن المِطَرْ اِزِّينا
يا ام الغيث غِيثينا   من مِدّ الله مِدِّينا
يا أم الغيث غيثينا   من الوبل انطينا(٨)

المعنى:

يا أم الغيث أغيثينا .. بُلِّي عباءةَ راعينا (أي راعي مواشينا).

يا أم الغيث أغيثينا .. من المطر أسقينا
يا أم الغيث أغيثينا من مُدِّ الله أمِدِّينا(٩).
يا أم الغيث أغيثينا من الوبل أَعْطينا.

يا أم الغيث أغيثينا من الوبل أَعْطينا.

البيت ـ ١ ـ: تدل كلمة «**غيث**» على مطر يستمر أربعة أيام في الأقل، على أرض واسعة. **بْشَيت**: عباءة رمادية [رقيقة] زهيدة الثمن، تغزل من الصوف، أو من رديء القطن.

البيت ـ ٢ ـ: تزيد الفتيات دعواتِهِنَّ شيئاً فشيئاً من أجل المطر، فيُرِدْنَ في أول الأمر مطراً يبلل عباءة الراعي وحسب، ثم يدعون من أجل مطر يدوم عدة ساعات.

البيت ـ ٣ ـ: إذا صب الله سبحانه وتعالى المطر من مكياله، أو إناء المطر، فإن هذا

يعني مطراً غزيراً مباغتاً.

البيت ـ ٤ ـ: وبِل: الوبل مطر يستمر عدة أيام، ويغمر أراضي شاسعةً. «نَطَى» تستعمل بمعنى «عَطَى»: أعطى.

١ ـ يا امَّ الغيثْ غِيثينا   دايِمْ شَرّكْ بالينا
٢ ـ يا امَّ الغيثْ غِيثِينا   دايِمْ عَجٌّ عامينا
٣ ـ يا امَّ الغيثْ غِيثِينا   وَحْيَ المَحَلْ بِتْلِينا
٤ ـ يا امَّ الغيثْ بانُقْعا   قَتَلنا البَرْدْ وْصَقْعا

المعنى:

١ ـ يا أمَّ الغيثِ أغيثينا! إن شرَّكِ لَمُتسلِّطٌ علينا. معذِّبٌ لنا دائماً!

٢ ـ يا أُمَّ الغيثِ أغيثينا! فثمة رياح دائمة قوية تعمينا! (بما تحمله من تراب وغبار).

٣ ـ يا أمَّ الغيثِ أغيثينا! فشَبَحُ المحل يَتتبَّعنا!

٤ ـ يا أمَّ الغيثِ يا جائعة! لقد قتلنا البَرْدُ وصقيعُه!.

البيت ـ ٤ ـ: «البَرْد» أضعف من «صقعة». ويسمع في الصيف غالباً القول «بَرْدْ اليوم» أي: الجوُّ بارد اليوم. ولكن «صَقْعة» لا تستعمل إلا عندما تخترق العظامَ ريحُ الشَّمال الثلجيةُ الجافة.

١ ـ اللِّي تَعْطينا بالغِرْبال   جَعَل وُليدَهْ خَبَّال
٢ ـ اللِي تَعطينا بالمِنْخل   جَعَل وُليده يَدْخلْ
٣ ـ اللِّي تَعْطينا بالحَفْنَهْ   عسى عَدُوَّته لِدَفْنَهْ
٤ ـ اللِّي تَعْطينا بالكَمْشَهْ   جَعَل عَيُونَها الرَّمْشَهْ

المعنى :

١ ـ التي تُعطينا بالغربال .. جعل الله ابنها خيَّالاً

٢ ـ التي تُعطينا بالمِنخل .. جعل الله ابنها يدخل (على زوجه).

٣ ـ التي تُعطينا بالحفنة .. عسى أن تدفن عدوًّها [أي عساه يموت].

٤ ـ التي تُعطينا بأطراف الأصابع .. عسى أن تكون عيونها رَمْشاء (كثيرة شعر الرموش).

البيت ـ ٣ ـ: الحَفْنه: هي قدر ما تمسكه اليد. وقد أميلت راحتها إلى أعلا وثُنِيَت أصابعها.

البيت ـ ٤ ـ: الكَمْشَه: هي قَدْرُ ما يمكن قبضه بين الراحة والأصابع واليد مقلوبة.

ارْكِبُوني الحاشي   وابْعِدُوا بِكْماشِي
دَمْع عيني نَوَّاشِ   على اللي فارْقُوني

المعنى:

أرْكِبوني الجمل البَكر. وأبْعِدُوا من يقودني
دمع عيني قد فرغ .. لبكائي على من فارقوني(١٠).

الحاشي: بعير لم يبلغ بعد من العمر ثلاث سنوات. والناقة التي أكبر منه تسمى «جلّ». يعاني الجمل البَكْر من نقص الماء والمرعى، وتعاني الفتاة من الحزن لفقد حبيبها، وكل منهما سيهلك إن لم يَلْقَ رعاية.

أرْكبوني الحَمْرا   واطِعْموني تَمْره   الله يْطَوِّل عُمْرَه
يوم هم خلّصوني

المعنى: أرْكِبوني فرساً كُميتاً، وأطعموني تمرةً، أطال الله عمره لأنهم حرروني. إنهم ـ أي أقاربها ـ أنقذوها من الموت بأن أعادوا لها عشيقها الذي لم يمت عطشاً في الغارة.

يا ذيبْ يا طارْدَ الْهِيَف   اطْرُد هبوب الشّمالِ
عينْت عَلْيا وأبو زيد   أهْلَ الْقُصُورَ العوالي

المعنى: يا ذئب! يا من يكافح ريح الجنوب الحارة! اطرد هبوب ريح الشمال البارد لا بد أن قد رأيت «عَلْيا» و«أبا زيد» اللذين كانا يسكنان القصور العالية.

الذئب لا تضره الرياح على اختلافها، ولذلك بلغ من الكبر عِتِيًّا بحيث استطاع أن يقص كثيراً مما يتعلق بساكني القصور الخربة التي رآها.

الهيف: الريح الحارة الجافة التي تهب في الصيف من الجنوب الشرقي محدثةً الكثير من المعاناة، لا سيما للأطفال والنسوة.

الشِّمال: الريح الشمالية الشديدة البرودة، التي تقضي على النبات والحيوان والكائنات البشرية كلها. وإذا هبت واستمرت مدة تجمَّد العشب، ومرضت البهائم والناس معاً.

ولا تأتي الأمطار بعد ريح «الهيف» في الصيف، ولا بعد ريح «**الشِّمال**» **في الشتاء**.

والذئب يكافح ريح الجنوب (فهو: طاردها)، ويغلب ريح الشمال ويقصيها. **أبو زيد وحبيبته عليا**: بطلا قصص تحكي بين الحضر. ويفترض أنهما يملكان المدن الخربة في الوقت الحاضر، وأنهما عاشا في قصور ترتفع حيطانها المتهاوية على الأفق، على حدود الصحراء.

وتُقدَّم هديةٌ ما من كل بيت للصبايا المرافقات لأم الغيث. وبعد أن يَزُرْن بيوت الشَّعر كلها يختلفن مع «أم غيثهن» إلى خيمة صغيرة قد ضربت جانباً حيث يقتسمن أي شيء أُعْطِينه ويأكلنه، ويخلعن العباءة عن الصليب، ثم يَعُدْن في المساء من حيث أَتَيْن.

● حِقَبُ الرَّخاء والفاقة ●

إنَّ مطرَ الوسم الوفيرَ، وبخاصة المطرَ «الثُّروى» أي مطرَ الثُّريَّا لَيَضمن للبدو ـ كما قلنا ـ مرعى غنيًّا من النباتات الموسمية أو الأعشاب «عِشِب»، ومن ثَمَّ رخاءٌ يدعى عموماً «رَبيع». وفي البراري الداخلية لا تدل كلمة «ربيع» على فصل من فصول العام، فيستحيل لذلك ترجمتها بكلمة « Spring : فصل الرَّبيع» كما نفعل حين نتعامل مع المناطق المأهولة والمزروعة.

ويتمتع الفلاحون، سكان المناطق المزروعة بـ «الرَّبيع» من عام لآخر، ولأنه يبدأ دوماً في الفصل نفسه، فإن الربيع لديهم يعني «فصل الربيع».

إن الملك جِبرين ـ كذا ـ الذي يحكم سحب المطر لا يُكِنُّ حُبًّا لبلاد الرولة ولا للصحراء، ولهذا فهو يَصُفُّ أجنحته فوقها لكيلا تمطَر إلا على بقعٍ ضيقةٍ هنالك وحسب، أي حيث ينزلق المطر من جناحيه. وبخلاف ذلك، حين يطير فوق أراضي الفلاحين يقبض جناحيه إلى جسده قدر إمكانه، فتهطل الأمطار في كل ناحية.

إن جبرين في رحلته فوق البراري يضرب السحب ليضطرَّها إلى الإسراع الشديد في حركتها، لكنه يَدعُها وشأنها فوق الأراضي المأهولة فتمطر هناك مطراً غَدَقاً. ويفسر علماء القرآن سلوك جبرين قائلين إنه غاضب على البدو لعدم تقيدهم بالتعاليم التي نقلها إلى النبي محمد ﷺ(١١).

وإذا لم تتشرب الأرض أية أمطار خريفية فلا ربيع إذن «الأرْضْ اللي ما تِنْوسِمْ ما تربّعْ .. مُخْطيهْ». ويكون «الربيع» أعظم وأطول إن نالت الأرض قسطاً وافراً من مطر «السمَّاك» بعد تَشَرّبِها أمطار الخريف، فتتحول السهول قاطبةً، وحتى الصحراء، إلى مروجٍ بهيجة. وتُغطي في الحال ضروبٌ تفوق الحصر من النباتات الموسميّة والشجيرات المعمرة كلَّ وادٍ وغورٍ ومنحدر ناعم، والسهول المكونة من الرمال الدقيقة الحمراء كلها، إضافة إلى الصدوع والمرتفعات. وتقضم الإبل من النباتات الشهية دون سواها، وتسمن حتى لا تكاد تقوى على الحراك. وكثيراً ما كان الحليب يسيح من ضروع الخَلِفاتِ (النوق الحلائب) الممتلئة بالحليب. وتطوف الأفراس ذكوراً وإناثاً في أثخن عشبٍ؛ ويملك البدو رجالاً ونساءً، شيوخاً وأطفالاً، من الحليب الحُلْوِ والحامضِ، وشحومِ الإبل أكثر مما يعرفون ماذا يصنعون به؛ وأكثر من ذلك يحيا لديهم الأمل في ربحٍ مؤكدٍ من بيع النوق الفاضلة عن الحاجة، أو المسِنّة، أو العقيمة، للمشترين من «عُقَيل» الذين يدفعون أثماناً طيبة لقاءَ الحيواناتِ السمينة.

وفي الأراضي التي بها «ربيع» تُرى بيوتُ الشَّعر مبعثرةً في شتى الأنحاء. ولوجود كثير من المراعي الطيبة القريبة من بيوت الرعاة فإنهم لا يَعْزُبون بإبلهم إلى المراعي النائية.

ويتوفر ماء المطر الباردُ النقيُّ في كل منخفضٍ، أو صدعٍ في صخرة، أو حفرةٍ في بطن وادٍ. وكل يستحمُّ، وتُغسل الملابس، ويُقضى على شتى أنواع الطفيليات. ويهرع الشبانُ في أواسط النهارِ، وفي المساء، إلى الغدرانِ في قيعانِ الأوديةِ للتوضؤِ، ويستحمون كلٌّ على حدة، الفتيانُ في مكان، والفتيات في مكان، وتُسمع في كل صوب صيحاتُ ابتهاجهم وأغانيهم المنوعة. ويُطبخ في البيوت الفُطْر، والكَمْأة، والبصل البري الصغير، والخضروات الطازجة، ويُسْتَمْتَعُ بها.

واسم الفطر المحلي هو «الهُوبَر»، وهي تنبت بعد أمطار الليل الدافئ: (إمْطِرْ بالليل وراح يَتجنَّى الهوبر). ويخرج صباحاً بعد مثل تلك الليالي الرجالُ والنساءُ معاً بحثاً عن ذلك الطعام الشهيٍّ الذي ينمو خير نموٍّ قرب التُّرع، بينا تفضل الكَمْأة التربة المختلطة بالرمل، وتُكوِّن الأخيرة عند اقترابها من السطح كتلاً صغيرة شبيهة بالقبعات تسترعي عين الملتقِط، فيقلب التراب الذي يغطيها عندئذٍ باليد أو بعصاً، ويحفر عن الكَمَأ، وتُغلى عند طبخها بالماء المالح، وتقدم مع الزبدة أو شحم البعير. وهنالك طريقة أخرى هي خَبزها بالمَلَّة بعد تمليحها تمليحاً تامّاً.

وثمة ضروب ثلاثة من الكَمْأة (الفقع): الكِما، والزُّبيدي، والخْلاسي. بعد أن جمع بدوي كوماً منها صنفها في بيته حسب أنواعها قائلاً: «الكْمَيَّهْ لامَّ البْنَيَّهْ، الزَّبَيدِي لِامَّ وْلَيدي، الخْلاسي لْراسي»! أي: هذه هي الكُمَيَّاةُ ستناها أم البُنَيَّة، وهذه «الزبيدي» وسأعطيها أُمَّ بُنَيٍّ، وخيرها «الخلاسي» سأبقيها لنفسي!.

ويستمتع البدو جميعاً أيَّما استمتاع بالبصيلات الصغيرة لبعض النباتات البرية وبخاصة الطِّيطَه، والزُّبَحْلة، والكراث .. إلخ. وتبعث الأمهات بَنِيهن للبحث عنها بقولهن: «عيالي يا عيال الطِّيطَهْ، وامُطْ لكم مُطيطه» أي: يا بَنِيَّ الصغار أحضروا لي الطيطة وسأُعدُّ لكم مُطيطة (طعام من البصل البري المدقوق).

وينمو «السمح» بأصنافه المتفرعة منه: «الدّعاع» و«الحوَّا» في السهول التي شوتها الشمس شيًّا، والمدعوة «الحماد»، في سنة الخصب. وإذا نضجت هذه النباتات وكانت ماتزال غضة فإن البدو يطلبونها، ويضعونها في حُفَر بعيداً عن الماء أو في أكياس، فإذا جفت ضُربت بالعِصِيٍّ، وهُزَّت، ووضعت البذور «الكعبر» التي سقطت على الأرض في

أكياس «عدول» وجيء بها إلى الغدران حيثُ تترك إلى حين، أو تنقع في الماء، في الأقل، حتى تسقط قشورها اليابسة. وأحياناً تُملأ أحواضُ الماءِ الجلديةُ الكبيرةُ ماءً وتوضع فيها القشور بثمارها، وبعد حين تنتفخ وتنفجر، فيُرمى بالقشر الذي يطفو على السطح بعيداً، بينما تُنشر البذور النظيفة على بساطٍ وتترك لتجفَّ؛ أو يضع البدو الأكياس الملأى، وهي لما تزل رطبة في الشمس، ويهزونها حتى تَسَّاقط البذور إلى القاع، ثم يلقون القشور بعيداً، وينظفون البذور ثانيةً لتكون صالحة للأكل في موسم مجدب. ويدعى هذا «سِمِحْنِهْ» أو «سِبيب».

وتعتمد الخصوبة أو الوفر «الربيع» اعتماداً تامًّا على نمو الأعشاب والنباتات الموسمية نمًّوا جيداً، لا على نُموِّ الشجيرات أو النباتات المعمرة؛ فهذه تخضرُّ حتى بعد مطرٍ صيفيٍّ جيِّدٍ، إذا كانت الأرض قد سقيت سقياً حسناً «مصيوفه». لكن المطر الصيفيَّ لا ينفع النباتاتِ الموسميَّة لأن حرارة الشمسِ لا تلبثُ أن تحرقها.

وفي سنة واحدة ربما لا يكون لدى قبيلةٍ «ربيع» بتاتاً، ويكون لدى قبيلة أخرى، بل ومجاورة، وفرةٌ من كل شيء. ويكون التباين أوضح إذا كانت القبيلتان متعاديتين. يقولون في مِثْل هذه السنة: «هٰذي السَّنَة وْلَهَا سِنُّون، ناسْ يَعيشون وناسْ يموتون».

ويقسِّم البدو «الرَّبيع» إلى أنواع منها «ربيع الماش» ويعني فصلاً يتألف منه «الربيع» بِرُمَّته من رقعٍ نباتية متشتتة لا تكفي حتى لإطعام أصغرِ الإبل. و«ربيع الصَّفارَى» حين لا ينمو إلا «الصَّفَارَى» بأزهارها الصفراء. و«ربيع الدِّمْنَهْ» حين لا تهطل أمطار سماكٍ على الأعشاب مع أن براعمها ربما تكون قد بَدَتْ ونمت نمًّوا حسناً بعد مطر الموسم والمطر الشتوي، فتصفر مبكراً، أي في آخر مارس. و«ربيع النفجان» حين تُغَطَّى السهولُ والأغوارُ جميعاً بسجادة كثيفة من العشب. وأخيراً «ربيع الطَّفحة» حين لا يتوفر مرعى خِصبٌ في المنخفضات وحدها بل في المنحدرات كلها.

وكما يحِنّ البدو حنيناً قوياً لِسِنِي «الربيع» فإنهم يخشون سنوات العوز أو «الخَوَا». وإذا لم تتوفر الأمطار في أشهر الخريف بقدر كافٍ مدة عامين أو ثلاثة فلا عشب، وعلى الإبل، حينئذٍ، أن تقتات الشجر وحده. إن أمطار الشتاء «الشِّتْوِي» لَتُضخم هذه النباتات ذاتَ الخضرة الدائمة، لكنها تجف خلال أيام «السِّماك» الحارة فلا تشتهيها الإبل،

ومن ثَمَّ تبدأ «أيام الخَوَا» أو «أيام العوز» الحقيقية، وهي فترة تَنْفَق فيها إبل كثيرة.

لكن إن لم تهطل الأمطار الصيفية «الصيفي» أيضاً لم تورقْ شجرة واحدة. وتَسَّاقطُ فروع الشجر التي نمت في السنة الفائتة لتكسرها الريح وتفرقها، وسرعان ما تتحول الأرض إلى صحراء مَيْتةٍ ومتعاملة مع الموت.

هذا هو عمل الشمس الأنثى التي غايتها الوحيدة التحريق والتدمير.

الطقس الحار والبارد؛ الطَّلّ؛ الريح؛
الضباب؛ السَّراب والعواصف الرملية

يَحدث أشد الحرارة المسمى «حَمَّ الكِلَيْبين» في فصل القيظ. وأشد الحرارة بعد ذلك «حَمّ سُهَيل»، وهو الفصل الذي يأتي قبل طلوع سُهَيْلٍ مباشرة. وإذا اختفت الثّرياء من السماء جف كل عود «الْيَاغَابتْ الثُّرَيَّا كِلّ عُودٍ يِبِسْ».

وأبردُ الفصولِ كلِّها فصلُ الشتاء مع بضعة أيامٍ قبله وبضعة بعده.

ويكون الشتاء الحقيقي «المَرْبَعَانِيَّة» من ١١ ديسمبر حتى ٢٠ يناير. ويتبع بَرْدَ الشتاء سبعُ ليالٍ سامةٌ «سَبَع سَمّ»، ثم تليها سبعٌ دموية «سَبَع دَمّ»، وأخيراً سَبْعٌ إمَّا أن يزداد فيها شحم الإبل أو أن ينقص «يِسِير الدَّسَم ولا يسير». ولتبيان ذلك يحمل القول بأن ليالي الأسبوع الأول والثاني بعد «المَرْبعانية» غالباً ما كانت من البرودة بحيث تحيل حياة الإنسان والحيوان معاً بائسةً. إن أنوفَ الجمال لتسيل دماً من أثر البرد. ولا تبدأ الليالي الباردة بالتناوب مع الليالي الحارة قبل الأسبوع الثالث أي نحو منتصف فبراير، فتكون الأرض دافئة أثناء النهار، لكن تبرد، في الليل، طبقة الهواء إلى أعلى من متر واحد فوق سطح الأرض حيث يعاني العملاقان «أي الجمل والنخلة» كثيراً من البرد «بَرْدْ الطِّوِيلين». وتُغَطَّى في الشتاء «المَرْبَعانية» منطقةُ تدمر كلُّها ومناطقُ الحماد والوديان والحِجرة والخُنْفه وحِسْما كلُّها، وحتى النَّفودُ بالصقيع الأبيض «الحَلِيت»، وتبيضّ حينذاك الأشجار والشجيرات بالجليد في تدمر والحماد وحِسْما على هيئة رقائق كبيرة «ثويرات» بانتظام في كل عام، ولكنه لا يمكث على الأرض، بصفة عامة، أكثر من يوم واحد إلا في تدمر فيظل أحياناً مدة أطول من ذلك مسبِّباً خسائر جسيمة لمالكي

الأغنام والماعز.

والطَّلّ «أو النَّدَى، أو الطُّفَل» كثير طوال العام، لا سيا خلال أشهر الصيف. ويرسله القمر لينعش كلأً من النباتات الموسمية أو الأعشاب «عِشِب»، والنباتات الحولية أو الشجر التي إن لم تنعش على هذا النحو فإنها لا تقوى على تحمل حرارة الشمس.

ويسقط البَرَد ـ بفتح الراء ـ أحياناً بدلاً من المطر أو معه. وغالباً ما كان البَرَد من كِبَر الحجم بحيث يجرح، بل ويقتل الإبلَ الفَتِيَّة.

ولا أحد يجرؤ على سب الريح لأن كل نسمة هواء قد أرسلها الله سبحانه وتعالى. وتُدعى الريحُ الخفيفةُ «هَوَاء» وأيضاً «هبوب»، والقويةُ «صَلْف».

وأكثر ما يهب من الرياحِ الجنوبيةُ الغربيةُ. وتنشط في الصيف كل يوم بانتظام ساعتين بعد الظهر فتبرِّد حرارة اليوم وتدعى «برَّاد» ـ بتشديد الراء ـ، أو «ذَعْذاعي».

وتكاد ريحُ الشَّمال «الشّمالي» لا تهبُّ إلا خلال فصل الشتاء مُشتِّتَةً السُّحُبَ، ومُتَشرِبةً ماءها، ولذلك تسمى «السّلايْته»⁽¹²⁾.

ويحب البدويُّ في الشتاء ريحَ الجنوبِ «القِبْلي» حُبًّا جَمًّا، لأنها مصحوبةٌ دوماً بالمطر «السَّقِيَّة».

وتهب ريح الشرق «الشَّرْقي» أو «الشَّرْقِيَّة» في العادة، ثلاثة أيام أو أربعة فقط، وتتبعها دائماً الريح الغربية.

وعند انتهاء فصلي «**السماك**» و«القيظ» تكون هذه الريح قويةً قوةً متميزةً فتظل هابةً مدةً قد تصل إلى سبعةِ أيامٍ بلياليها. إنها تدعى «سِمُوم»، وهي جافة جفافاً مفرطاً وساخنة، وتسبب الكثير من المعاناة لا سيا للنساء والأطفال. ولو استمرت هابةً أكثر من سبعة أيامٍ لهلكوا عن بكرة أبيهم.

وتهب في الشتاء أحياناً الريح الشمالية الغربية «النّكبْه» ويكون ذلك عادةً في الليالي التي لا يظهر فيها القمر حيث تتلألأ النجوم فقط. وتدعى الليلة من هذه الليالي «جرْد» ـ بكسر الجيم ـ إنها مشرقة جداً لكنها باردةً برداً قارساً.

وإذا هبت ريحٌ غربيةٌ قويةٌ لكنها باردةٌ سميت الليلةُ «شَلْتا». وتعرف الليلةُ الدافئةُ التي تكون فيها السماء صحواً بـ«قَمْرازريق». وتدعى الليلةُ الدافئةُ التي تكون السماء فيها غائمةً «ظلما دِلقس». والليلةُ المظلمةُ الممطرةُ «غَدْرا».

وإذا كانت الرؤية في يوم مشمسٍ غيرَ جليةٍ، وعلى الأفق ضباب خفيف تُحُدِّث عن اليوم بأنه «غَطاطٌ ما يَعْطى الشوف».

ويكون الطقس معتماً نوعاً ما في الظهر خلال أيام القيظ، وتشبه الشمس أسطوانةً يميل لونها إلى الصفرة؛ هذه هي «الكَتْمة» أو «الكتام».

وينتشر فوق الأرض في الخريف والشتاء ضبابٌ رطبٌ كثيف «قُبَيس» أو «كُبَيس». ويظن البدو أن الضباب يسمع كما يسمع البشر، ويخشى الثعلب، ولذلك يصيحون به: «يا باكْباسْ عَنك الثَّعْلِب» أي: يا أبا الضَّباب! اهرب[١٣].

إن الرّولة يعدون الضَّباب من عمل الجن، لأنه يبدو في العادة للعيان متصاعداً من الأخاديد والصخور المصدعة، حيث يلبث مدة أطول. وإضافة إلى «القْبيس» في الفصول الباردة، فإن «العَجَاج» والسرابَ، اللَّذَين يكونان في الفصل الحار «كالقبيس»، عملُ الجن.

وفي الأيام الحارة المشرقة، وبخاصة في الظهيرة، تبدو في سهول الحماد التي لفحتها الشمس بِرَكٌ كثيرة قد أحاطت بها سياجات من الشجيرات والأعشاب الطويلة فيحث المرء الغريب، مخدوعاً بالمنظر الذي بدا له، مطيّته النَّصِبةَ إلى الماء القريب جدًّا، ويعجب لِمَ لا يحث الحيوان خطاه. لكن البهيمة في هذه الحالة، أعقل من الإنسان الغريب الذي تعوزه التجربة، فهذه البرك والمستنقعات ليست بمستقرة على اليابسة، إنها تتبخر في الهواء وحسب فإنْ هي إلا سراب.

وفي أحايين أخرى أيضاً يثير الجن ريحاً عاصفاً تصحبها غيومُ غبارٍ وترابٍ يسوقونها نحو البدو محاولين إعماءهم، وإسقاطَ بيوتهم، فتدفن كلَّ شيءٍ حيٍّ. وتُدعى مثلُ هذه العاصفة «عجاجةً».

إن الأيام التي تهب فيها عواصف الرمل لمفزعةٌ. وإن الليالي لأكثر منها إفزاعاً.

وتبدو في الأفق من جهة الجنوب سحب صغيرة قاتمة. وتسكن الريح. وتتلفع الشمس بأقنعة مرتعشة. ويستولي على الناس شعور غريب محزن. وتكون الإبل هائجةً مُسْتَفَزَّةً فتتجمع جماعاتٍ. وتكف عن الرعي. ثم تكبر تلك الأقنعة الصغيرة إلى أن تضحي سحابةً ذات علوٍّ كبير فَتَسُدَّ الأفق. وتمضي في الارتفاع باعثة إلى الأمام ضجيجاً ذا حفيف عنيف. وقبل مضيٍّ طويل وقتٍ يظهر أمامها حائطٌ أسودُ يظل متقدماً نحو الوجهة عينها. ويزداد الحفيف. ويتحول إلى زئير وحشيٍّ. ويأتي الحائط مُلْتفًّا يغطي كل شيء بالغبار والتراب حاملاً أيَّ شيء يعترض طريقه. ودافناً كل ما لم يستطع حمله.

التعليقـات

(٠) هذا هو الفصل الأول من كتاب «أخلاق عرب الرولة وعاداتهم» الذي يقوم الكاتب بترجمة القسم الأول منه من الانكليزية، ويقوم بترجمة القسم الثاني الدكتور عبدالله بن علي الزيدان.

(١) في الأصل: «الحوت»، وأنّثناها لتناسب الإشارات الكثيرة إليها على أنها أنثى والتي وردت في النص.

(٢) ترجم المؤلف «الظالمين» بـ«أولئك الذين يسيرون في الظلماء» وهو خطأ مستغرب وقوعه من أمثاله!

(٣) الشائع في نجد «صكة عُمَيّ» بدون «أل»، وانظر محمد بن ناصر العبودي، الأمثال العامية في نجد، الرياض (د.ت) ٧٣٠/٢. والمثل فصيح قديم بهذا اللفظ (أي بدون أل).

(٤) أي التوائم: الربيعان والجمادبان.

(٥) لست أدري، ولا المنجم يدري، من أين جاء المؤلف بهذا المعنى لـ«استهلت».

(٦) الحديث عن الذهب تحميل للنص فوق ما يحتمل، فلم ترد كلمة «الذهب» في النص. وتفسير «ذهاب» بـ«ذهب» وهم من المؤلف.

(٧) تأمل أيها القارئ الكريم في الحالة المُسِفَّة المؤسفة من الجهل المطبق الذي شاع بين هؤلاء الأقوام بحيث فشت فيهم كثير من أمثال هذه الخرافة.

(٨) تبين هذه المقطوعة ولاحقتها الحالة الدينية المتردية التي عاشها الرولة في أوائل القرن الهجري الماضي، (أوائل القرن العشرين المسيحي الحالي) فقد انتشرت بينهم، لجهلهم، هذه الشركيات السخيفة.

(٩) «المِدّ» هو (المُدّ) بضم الميم: المكيال المعروف. هذا هو المقصود اهتداء بترجمة المؤلف للكلمة، لكن قد يكون المراد: «مِنْ مَدّالله» ـ بفتح الميم ـ أي من عطاء الله وإمداده.

(١٠) ترجم المؤلف عجز البيت الثاني هكذا: «لبكائي على من فصلوه عني»، وما أثبتناه أدق، كما يدل عليه نص العبارة، لأن الفعل الأخير رسم هكذا (Fârakûni) لا (Farrekûni).

(١١) لا بد أن المؤلف ذكر هذه العبارة بناء على ما سمعه من الرولة. إذ لا نخاله يجهل أن هذا كلام خرافة!

(١٢) لعل الصواب «السّالتة» أي التي «تسلت» السحب، أي تمحوها.

(١٣) هكذا. والمعنى الدقيق هو «أيها الضباب جاءك الثعلب» أي: فاهرب!